قادة الاستقلال في شرق ووسط وغرب افريقيا في القرن العشرين

ودورهم في تحقيق السلام والوحدة الوطنية

د. الطيب أبشر الطيب *

تقديم :

تهدف هذه الورقة إلي التعريف ببعض الجوانب الثقافية والسياسية لرموز الحركة الوطنية من الرعيل الأول الذين تولوا مهام قيادة حركات التحرر الوطني في السودان وكينيا ونيجيريا وغانا وكان لهم شرف تحقيق استقلال أوطانهم من المستعمر الأوربي وكان لهم أيضا شرف تحقيق السلام وصون الوحدة الوطنية .

أوجه الشبه في السمات الشخصية :

هنالك بعض القواسم المشتركة في مكونات شخصيات هؤلاء القادة أزهري وكنياتا وازكيوي ونكروما وهنالك ملامح شبه بين الدول التي ينتمي إليها كل منهم في شرق ووسط وغرب إفريقيا .

فمن أولي مظاهر التشابه أن جميع هذه الدول كانت من المستعمرات البريطانية لما وراء الصحراء ، ورغم أن طبيعة وأسلوب الإدارة البريطانية لمستعمراتها تكاد تكون واحدة تقريبا إلا أن هناك بعض الفروق في خصائص ومميزات كل مجتمع والتي كان لها القدرة علي التأثير في تطور الحركة الوطنية .

ومن أوجه الشبه أن كافة الدول المعنية كانت في السابق مهدا لتلاقح ثقافات عديدة وماتزال تشكل مسرحا للتفاعل والتمازج والانصهار البشري رغم تنوع الأعراق والثقافات والمعتقدات . وقد استفاد المستعمر من هذا التباين واستثمره بشكل سالب وفقا لنظريته الشهيرة " فرق تسد " فأجج روح العصبيات القبلية وشغل الناس بأنفسهم وراح يجني ثمار أوطانهم وهم في معركة بدون معترك : فكانت هنالك الحركات الإنفصالية ومن أمثلتها : بيافرا والأشانتي وجنوب السودان ، إلا أن مسار التاريخ الوطني قد أخذ الوضع

---

* نائب مدير مركز دراسات السلام والتنمية بجامعة جوبا

الصحيح بعد خروج المستعمر واستطاعت الأنظمة الوطنية والحكومات المتعاقبة أن تزيل ماعلق بالوطن من مسالب وحصرها في أضيق نطاق ومن ثم تحققت الوحدة الوطنية رغم التباين وعملت الحكومات الوطنية علي ترسيخ دعائم الوحدة والسلام .
ومن أوجه الشبه كذلك أن المجتمعات المحلية والوطنية بهذه الدول لم تكن زنجية خالصة بل كانت وماتزل أخلاطا من الزنوج والعرب والبربر وغيرهم .

ويلاحظ أن غرب إفريقيا ينعم بثراء عريض في موارده في الأجزاء الجنوبية من أقطاره ، وبها توجد الموانيء التي تسهم في الاتصال بالعالم الخارجي ، كما أن سكان الجنوب وأغلبهم من المسيحيين يتمتعون أيضا بنسبة عالية من التعليم والثروة فيما توجد المجتمعات الإسلامية في الأجزاء الشمالية ورغم قدمها في المنطقة ، حيث يعود تاريخها إلي القرنين الثامن والعاشر الميلاديين ، حيث نشأت الممالك الإسلامية الشهيرة في غانا ومالي وسنغي وبرنو وكانم ورغم هذا فإن سكانها أقل حظا من التعليم والثروة والسلطة وهؤلاء السكان هجين من العرب والنوبة في شمال السودان والزنوج والهوسا في شمال نيجيريا والاشانتي والغاني في شمال غانا ورغم فقرها كانت ثرية من النواحي الثقافية والحضارية وخير مثال علي ذلك الخلافة السكتية الإسلامية التي قامت في شمال نيجيريا تحت راية المجاهد' عثمان دان فوديو وقد استمرت مزدهرة لمدة قرن كامل ١٨٠٣ - ١٩٠٣ وانهارت علي يد الإنجليز في إطار حركة الاستعمار الأوربي للقارة (١) .

وفي السودان الحالي يسود الإسلام واللغة العربية في معظم أرجائه الواسعة الفسيحة خصوصا في الشمال والوسط إلا أن هناك أقليات غير مسلمة في الشرق والغرب والجنوب.

الزعماء الرواد وفق عامل السن :

ومن هذه الخلفية يمكن الحديث عن الزعماء في ترتيب وتسلسل زمني وفق عامل السن فهذا يضع الزعيم الكيني كنياتا في المقدمة إذ ولد في ١٨٩٠ ويليه الأزهري المولود في ١٩٠٠ فنكروما الذي ولد في ١٩٠٩ ثم أزكوي وأبوبكر تفاوه بيلو من زعماء نيجيريا الأوائل .

هناك الكثير من التشابه بين هذه الشخصيات القيادية خصوصا في مراحل النشأة والتأهيل العلمي والخبرة والزعامة السياسية والريادة في قيادة الحركة الوطنية ولتوثيق جوانب مضيئة من سيرتهم الذاتية لابد من أن تمرحل فترات نضالهم .

فطور النشأة والتأهيل تفيد معطياته بتشابه ظروف التأهيل فكلهم تلقوا ما كان متاحا من التعليم في بلادهم ثم هاجروا إلي خارج الحدود للاستزادة من فرص العلم في المستوي الجامعي وفوق الجامعي فتلقوه في جامعات أمريكا وبريطانيا وكانوا جميعا من النابغين والأدباء والخطباء ولهم تجارب في العمل الصحفي والعمل في حقل التعليم وأهم من ذلك كله أنهم كانوا دعاة وحدة وسلام ، فالوحدة الإفريقية ظاهرة قديمة وبرزت في باديء الأمر في

أمريكا حيث نادي بها بعض الأمريكان السود الذين جلبوا من جزر الهند الغربية في أخريات القرن التاسع عشر ثم انتقلت الدعوة الوحدوية إلي أوربا حيث عقد أول مؤتمر لها في لندن في عام ١٩٠٠ ثم آلت قيادتها إلي جيل جديد اتخذ من لندن مركزا للمكتب الذي أنشأوه وأسموه بالمكتب العالمي للخدمات الإفريقية حيث كان يستقبل الطلاب والسياسيين والمثقفين والأفارقة مثل جومو كنياتا ونكروما وصارت لندن عاصمة سياسية لحركات التحرر الإفريقية بينما صارت باريس العاصمة الثقافية ونشأت بها منذ بداية الثلاثينات أندية ثقافية تطورت إلي ماعرف بالمدرسة الزنوجية وكان لها تأثير كبير في دول إفريقيا الناطقة بالفرنسية (٢) :

بدايات العمل السياسي

الزعيم جومو كنياتا :

ولنعد لمشوار الساسة موضوع الورقة ونبدأ بكنياتا فهو زعيم كيني ينتمي إلي قبيلة الكيكويو وهي من أكبر القبائل في كينيا ، كان أبوه راعيا للماشية وكان جده لأبيه من أطباء السحر من الذين يزعمون أن لهم القدرة علي صناعة المطر، تعلم جومو اللغة الإنجليزية في مدارس البعثة التبشيرية الاسكتلندية ، ثم عمل بالتجارة ومن بعد التحق بوظيفة كتابية في نيروبي ، وبعد الحرب العالمية الأولي تزعم جمعية " الماوماو " التي كانت تطالب باسترداد الأراضي التي سلبها البيض (٣) .

الزعيم اسماعيل الأزهري :

وفي السودان نجد إسماعيل الأزهري (٤) ينتمي إلي أسرة دينية عريقة ، فهو حفيد إسماعيل الولي وقد رباه جده الشيخ إسماعيل الأزهري ، تلقي تعليمه الأوسط بمدني في عام ١٩١٣ ، وكان متفوقا في دراسته ولهذا كان ترتيبه الأول علي أقرانه في الدفعة المدرسية وفي عام ١٩١٧ التحق الأزهري بكلية غردون التذكارية حيث كان يرغب في دراسة الهندسة إلا أن إدارة الكلية حرصت علي الوفاء بما أوصاها به جده من أن يقبل بالتربية ليصير معلما وقد تمكن مع ذلك من التفوق وكان ترتيبه أيضا الأول علي زملاء دراسته ، صحب الوفد الذي ذهب إلي بريطانيا للتهنئة بالنصر في ١٩١٩ ونسبة لنبوغه تم توظيفه في السنة الثالثة قبل أن يكمل الدراسة وقد تم تعيينه معلما بمدرسة عطبرة الوسطي فكان يدرس الإنجليزية والرياضيات والجغرافيا وقد تولي مهام المشرف علي المدرسة وكان يتميز في عمله بالدقة والانضباط وكان اجتماعيا وله علاقات واسعة مع كثير من السياسيين وفي عام ١٩٢٤ نقل إلي مدرسة أمدرمان الوسطي وفي عام ١٩٢٧ ذهب في بعثة دراسية إلي الجامعة الأمريكية ببيروت وتخصص في الرياضيات والتربية وعند عودته للوطن في ١٩٣٠ عين استاذا بكلية غردون وتمكن من تأسيس جمعية الآداب والمناظرة دعما للغة العربية وترسيخا لها في الأذهان ولهذا فقد عارض تدريس مادة التاريخ الإسلامي باللغة الإنجليزية كما أسهم في إصدار مجلة كلية غردون وكانت هذه أولي خطواته في مشوار العمل

السياسي العام ثم من بعد ذلك انتخب امينا عاما لمؤتمر الخريجين العام في ١٩٣٨ وعند ظهور الأحزاب تولي زعامة حزب الأشقاء (٥) .

كوامي نكروما :

أما غانا فزعيمها كوامي نكروما ولد بها في ١٩٠٩ وكانت تسمي وقتئذ بساحل الذهب نسبة لثرائها بهذا المعدن النفيس ، كان أبوه حدادا وقيل صائغا وقد توفي عندما كان ابنه نكروما طفلا ، درس نكروما في مدارس الإرساليات التبشيرية وتخرج في عام ١٩٣٥ ثم سافر إلي الولايات المتحدة الأمريكية للمزيد من الدراسة العليا فقضي سبع سنوات بجامعة لنكولن " ولاية مسيسبي وهي خاصة بالزنوج " وحصل منها علي درجة في الآداب واللاهوت ثم الدكتوراه في الآداب انتخب رئيسا لجمعية الطلبة الأفارقة في أمريكا وكندا وفي عام ١٩٤٥ سافر إلي انجلترا والتحق بكلية الاقتصاد بجامعة لندن وتم انتخابه سكرتيرا للمؤتمر الإفريقي العام .

عاد نكروما إلي ساحل الذهب في ١٩٤٨ وبدأ نشاطه السياسي متأثرا بمظاهر التفـــرقة العنصـــرية فأصـــدر في العـــام نفسه صحيـــفة أكـــرا ايفننج نيوز (Accra Evening News Paper) وفي ١٩٤٩ أسس حزب الشعب الدستودي وطالب بالاستقلال وقد تسبب مطلبه هذا في سجنه في عام ١٩٥٠ بتهمة تشجيع الأحزاب والإخلال بالأمن وفي عام ١٩٥١ وهو سجين انتخب عضوا بالمجلس التشريعي وحصل حزبه علي خمسة وثلاثين مقعدا من جملة ثمانية وثلاثين مقعدا (٦) .

الزعيم ازكوي :

أما المناضل النيجيري ازكوي فهو من قبيلة الأيبو بنيجيريا ، تلقي تعليمه بأمريكا وعاد منها بعد الحرب العالمية الأولي وقد ارتبطت شهرته بظهور الأحزاب في ١٩٤٤ وبداية ١٩٤٥ وقد نشأت حينئذ علي أساس عرقي وكان في أولها حزب المجلس الوطني بنيجيريا والكمرون والذي أسسه ازكوي نفسه ثم أصدر صحيفة في ساحل الذهب وكان له الفضل في إرسال نكروما للتحضير للدراســات العليــا بلندن كما أنشــأ ازكيــوي (Izkiw) عددا من الصحف في نيجيريا (٧) .

دور القادة في تحقيق الوحدة الوطنية :

كـــينيا :

تأسيسا علي معطيات النشأة والتأهيل العلمي وبداية المشوار السياسي نتتبع خطي الزعماء لابراز ماقاموا به من دور في تحقيق الاستقلال والسلام والوحدة الوطنية .

فكنياتا برز في الساحة السياسية إبان تطورات قضية قبيلة الكيكيو التي ينتمي إليها وقد دعته الرابطة لتولي مهام القيادة نسبة لتعليمه وإجادته الخطابة فلبي نداءها وراح يطوف أرجاء كينيا مروجا للرابطة وعدالة مطلبها فاكسبه هذا شهرة ومشيئة واسعة لكن

الإدارة البريطانية كانت ترقب التحركات عن كثب وتتابعها بحذر شديد كما كانت حكومة بريطانيا أيضا مشغولة بالأمر إلي درجة أنها أرسلت لجنة لتقصي الحقائق وقد قابل كنياتا اللجنة وتحدث لها عن الرابطة معبرا عن أمله في أن تسعي بريطانيا إلي إيجاد حلول للمنازعات بين البيض والوطنيين المحليين حول ملكية الأرض إلا أن اللجنة لم تستطع أن نفعل شيئا ولهذا أرسلت رابطة الكيكويو وفدا إلي لندن بزعامة كنياتا نفسه في ١٩٢٩ وكان عمره وقتئذ ثلاثين عاما ولما وصل لندن دهش لسماعه حديثا حول " الحرية في إفريقيا فما كان يطمع في النجوم و كلما كان يرجوه أن يتحقق هو تسوية النزاع حول الأرض في كينيا وفي أثناء وجوده هناك أجري محادثات مع كبار موظفي الحكومة البريطانية بمكتب شئون المستعمرات بلندن إلا أنه أضطر للعودة إلي بلده علي أثر نزاع شب بين أعضاء قبيلته وعند عودته شجع القبيلة علي فتح مدرسة خاصة بها وعدم الاعتماد علي مدارس التبشير فاكسبه هذا الإجراء المزيد من التأييد الشعبي (٨) .

وعندما دعت الحكومة البريطانية ممثلين من اتحاد شرق إفريقيا : كينيا ويوغندا وتنجانيقا في ١٩٣١ سافر كنياتا إلي هناك للمرة الثانية إلا أن اللجنة رفضت مقابلته فترك الأمر وصرف النظر عن القضية برمتها لأنه ايقن بأن البيض سوف لن يخلوا أراضي الوطنيين إلا عند جلائهم التام من كينيا التحق كينياتا بكلية ودبروك Wood Brooke College ببرمنجهام وظل يدرس لعدة أشهر قام خلالها بزيارة إلي موسكو في الفترة مابين ٣٢ و ١٩٣٣ ثم التحق بجامعة لندن للدراسات الاجتماعية في عام ١٩٣٣ وقضي بها خمس سنوات وتمكن من تأليف كتابه الذي سماه Facing Mount Kenya وقد ضمن كتابه هذا معلومات عن قبيلته وكان يستخدم الرمز في الحديث عن قضية اغتصاب المستوطنين البيض لأراضي الأهالي وكان يفند أيضا مزاعم ودعاوي البيض بالتفوق العرقي والعقلي . ثم تمكن كنياتا من تأليف كتاب آخر بعنوان : . Land is the key to the Peoples life وبعد غياب دام خمسة عشر عاما عاد كينياتا لتولي زعامة الكيكويو واستطاع أن يحتوي القضايا الخلافية فكسب ود وتعاطف الجماهير وبفضل نجاحاته تلك اعتمدته بريطانيا متحدثا رسميا باسم الكيكويو .

وفي ١٩٤٦ طاف كنياتا مدن نيروبي وممبسا فقابلته الجماهير بتأييد شعبي كبير ولهذا دعاه الحاكم العام البريطاني للاشتراك في الجمعية التشريعية بكينيا فرفض كنياتا الطلب وفي ١٩٤٧ انتخب كنياتا رئيسا لرابطة الكيكويو وكانت تواجهه تحديات كثيرة منها كيفية توحيد شتات القبائل المتناحرة وكيفية التخلص من البيض ولهذا كان يدعو إلي التخلي عن عصبيته القبلية رغم أنه ينحدر من أكبر القبائل في بلاده (٩) .

وفي عام ١٩٥٢ اشتدت مطالبة الماوماو بارجاع أراضي الأهالي لملاكها الأصليين فقامت السلطة الإنجليزية بإعلان حالة الطوارىء والأحكام العرفية ومنحت الشرطة والحسبة سلطات

استثنائية لقمع المظاهرات وعندما انتهي الصراع في ١٩٥٥ كانت خسائره ثلاثة ألف قتيل إفريقي ومائة قتيل أجنبي ولكن من أميز نتائجها أنها لفتت أنظار المستعمر إلي خطورة الوضع فبدأ يخطط لاستقلال كينيا وتحوطا لمضاعفات القضية وضع كنياتا في معتقل تحفظي بشمال غرب كينيا وأدي ذلك التصرف إلي نتائج عكسية فقد ازداد تمسك الشعب بزعيمهم ورأوا فيه الخلاص مما هم فيه من ظلم واضطهاد وقد أجبر هذا الوضع السلطات البريطانية إلي إنهاء اعتقاله في ١٩٥٩ ولما جرت انتخابات سنة ١٩٦١ فاز فيها حزبه وصار في عام ١٩٦٣ أول رئيس لكينيا وقد اختار وزراءه من عدة قبائل للموازنة بينها ولكنه كان دائما يذكرهم بأن القبلية يجب أن ينظر إليها باعتبارها من موروثات الماضي (١٠) وأراد بذلك الاستفادة من تجارب الماضي ولتفادي تكرار النزاعات والتشرذم القبلي والانقسام فقد كان المستعمر يعتمد علي القبيلة كوحدة هامة لتأدية مصالحه في موارة الوطنيين وقد كانت وسيلة بقائه بث بذور الفرقة والشتات وإذكاء روح العصبية القبلية المفضية إلي الانقسامات الداخلية والحركات الانفصالية بسبب الأعراق والهوية بالقدر الذي يهدم الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي ومثل هذا الانطباع نجده متكاملا لدي رصفائه الآخريين ولكنهم أرادوا الابتعاد بمجتمعاتهم بعد الاستقلال عن نظام التقريب وتنويب الهوية الوطنية وسعوا إلي غرس روح الإخاء والمحبة والثقة بين أبناء الوطن الواحد دون اعتبار للون أو العرف أو الدين .

الســـــودان :

وفي السودان اقتفي الزعيم الأزهري خطوات مماثلة في الصراع مع المستعمر فقد بدأ حياته معلما ودرس بالجامعة الأمريكية ببيروت وعمل استاذا بكلية غردون وهذه المؤهلات إضافة إلي الروح الوطنية ومميزات القيادة التي توفرت في شخصيته مكنته من تولي زعامة مؤتمر الخريجين العام الذي نشأ في ١٩٣٨ (١١) .

وقد سمي بالمؤتر علي غرار المؤتمر الهندي فكان من أبرز رجاله سيما وقد كان المنبر العريض الوحيد الذي أتاح للسودانيين فرصة التعبير عما يريدون وكان رواد المؤتمر يهدفون إلي البعد به عن الطائفية والعصبية البغيضة وكانت له مجلة ناطقة باسمه " المؤتمر " وكانت عضويته متاحة لكل من تخرج فى المدرسة الابتدائية فما فوق وقد اندمجت فيه بأمدرمان الجمعيات الأدبية التي تكونت في ود مدني – الهاشماب والأبروفيون التي ذكرناها سابقا .

رفع المؤتمر مذكرة إلي الحاكم العام سير ستوارث سايمز (١٩٣٤/ ١٩٤٠) عبر سكرتيره الإداري المستر قيان (١٩٣٤ / ١٩٣٩) ولكن الأخير أبدي تحفظا علي قبول المبدأ واعتبر أن الحكومة سوف تتعاطف مع مثل هذا الجهاز إذا ابتعد عن الأمور السياسية وإذا اقتصرت أعماله في حدود أعضائه .

وقبل أن يقدم المؤتمر مذكرته الشهيرة الثانية زار علي باشا ماهر رئيس وزراء مصر السودان في ١٩٤٠ وتمكن الخريجون من لقائه رغم العوائق التي وضعتها الحكومة للحيولة دون اللقاء وقد كانت المقابلة بين الخريجين وعلي ماهر فرصة نادرة تعرف من خلالها الرئيس المصري علي حقيقة المؤتمر وتسلم منه مذكرة مطلبية تنادي مصر والخيرين بها إلي العمل الدعوي الإسلامي في الجنوب وبناء المعهد العلمي ولتشييد مكتبة عامة إلي جانب مطالب عديدة أخري .

وقبل أن تتمكن الإدارة البريطانية في السودان من إنشاء المجلس الاستشاري لشمال السودان في ١٩٤٣ (١٢) قدم المؤتمر مذكرته الأولي الشهيرة في ١٩٤٢ بتوقيع سكرتيزه إبراهيم أحمد إلي الحاكم العام هربرت هدلستون (١٩٤٠ - ١٩٤٧) عبر سكرتيره الإداري دوقلاس نيوبولد (٣٩ - ١٩٤٥) وقد حوت المذكرة اثنى عشر مطلبا في مطلعها المطالبة بحق تقرير المصير استنادا إلى وعد حلف الأطلنطي الذي قطعه علي نفسه إبان الحرب العالمية الثانية بمنح الشعوب ذلك الحق بعد إنهاء الحرب ومن أهم المطالب أيضا الغاء قانون المناطق المقفولة لعام ١٩٢٢ وإيقاف العون المادي الذي تقدمه الحكومة للجمعيات التبشيرية في الجنوب وقد قصد المؤتمر بذلك تعطيل سياسة المستعمر التي كانت ترمي منذ زمن بعيد إلي فصل الجنوب عن الشمال وضمه لمستعمراته في شرق ووسط إفريقيا لذا عاملت الحكومة المذكرة بغلظة إذ أعيدت إلي المؤتمر ومعها تعليق السكرتير الإداري يفيد بأن الحاكم العام قد رفض قبول المذكرة لأنها تطالب بأمور ليست من مسئولياته وإنما هي من اختصاص دولتي الحكم الثنائي بريطانيا ومصر كما لم يعترف أصلا بكيان اسمه (الخريجون) ونوه بأن المؤتمر إذا حاد عن صلاحياته التي تعاطف معها السكرتير الإداري السابق - قيلان - بحسبان أنه ليس حزبا وليس كيانا سياسيا فإنه سوف لن يجد من الحكومة أذنا صاغية حتي للنصح والاقتراح لأنه يمثل شريحة ضئيلة من الشعب السوداني ولايجوز له الحديث نيابة عن الشعب كله ولايجوز له التدخل في الشئون السياسية وعليه أن يحصر صلاحياته في إطار عضويته المحدودة وفي مذكرة تالية هدد السكرتير الإداري المؤتمر بأنه سوف يقدم علي إبعاد موظفيه من عضوية المؤتمر وهم من الموظفين بالدولة إذا تمادي المؤتمر في الخوض في السياسة .

كون المستعمر المجلس الاستشاري لشمال السودان في ١٩٤٣ ليضم المديريات الشمالية الست ولم يمثل فيه جنوب البلاد (١٣) وقد كان مجلسا صوريا تكونت غالبية عضويته من الإداريين العاملين بالدولة وكان غرض إنشائه أن يكون ترياقا يمتص تيار الحركة ألوطنية الجارف (١٤) .

قاطع مؤتمر الخريجين المجلس الاستشاري لأنه لا يمثل الجنوب ولأنه هيئة استشارية فقط وأنه واقع تحت سيطرة الحكومة ولما كثر النقد للمجلس الاستشاري كونت الإدارة البريطانية

" مؤتمر إدارة السودان في ١٩٤٦ ، والذي أوصي في تقريره الخاص بضرورة تعديل قانون المجلس الاستشاري وتطويره إلي مكتب تنفيذي وجمعية تشريعية وكخطوة تجاه تحقيق هذا التغيير ترأس السكرتير الإداري سير جيمس روبرتسون (١٩٤٥ - ١٩٥٤) اجتماعا في جوبا في ١٩٤٧ (١٦) وطرح للجنوبيين خيارين أما أن يكون لهم مجلس استشاري كالذي أنشيء في شمال البلاد منذ ١٩٤٣ وإما أن يتجاوزوا تلك المرحلة ويشتركوا بممثلين في الجمعية التشريعية حسبما أوصي مؤتمر إدارة السودان في تقريره فجاء رد الجنوبيين قاطعا ومؤيدا لوحدة تراب السودان شماله وجنوبه ومن ثم اختاروا ممثلين لحضور جلسات الجمعية التشريعية التي نشأت في ١٩٤٨ .

قوبلت الجمعية التشريعية أيضا بالرفض من قبل الأحزاب التي كانت قد بدأت في الظهور منذ ١٩٤٥ (١٨) وكان أكثرهم تشددا في المقاطعة الاستقلاليون برئاسة حزب الأمة تحت رعاية السيد عبدالرحمن المهدي وقد كان شعاره " السودان للسودانيين " (١٩) وكان ينادي بالاستقلال التام مع علاقات طيبة مع بريطانيا ومصر فيما نادت الأحزاب الاتحادية وعلي راسها الأشقاء بزعامة اسماعيل الأزهري ورعاية السيد علي الميرغني بوحدة وادي النيل والإخاء مع مصر تحت التاج المصري (٢٠) .

ثم أخذت مسألة السودان ترتبط بمجريات وتطور الأحداث السياسية في مصر إلي أن قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ و دعا نجيب الأحزاب السودانية للقاهرة وتمخض الاجتماع عن اعترافه بسيادة السودانيين علي سودانهم (٢١) وتعزي بعض المصادر إلي أن نجيب كان سودانيا و أن أباه قد خدم بالسودان في قصر الحاكم العام لكن ذلك ليس مبررا كافيا ليدفع الرجل للتنازل عن أمر زعمته مصر حقا تاريخيا وهو تبعية السودان لها منذ بداية حكم محمد علي في مصر لكن الرجل كان بعيد النظر وأدرك أن لعبة المستعمر قد انكشفت وأنه لا داعي لاستمرار اللعبة فالأفيد أن يستقل السودان لتنعم مصر باستقلاله ويجني ثماره تأمينا لظهرها وتطهيرا لوادي النيل من عربدة المستعمر الذي كان يمسك العصا من النصف وهذا هو العمق الوطني والفكري المخلص لقضايا أمة تجمعها دماء وعقائد ووحدة تراب ونيل ومصير اعترفت مصر بقضية السودان واعترفت (٢٢) بتقرير المصير ووافقتها بريطانيا علي ذلك في اتفاقية ١٩٥٣ بشأن السودان الذي تقرر أن يخضع لفترة انتقالية تجري في نهايتها انتخابات عامة مباشرة وفي هذا الأثناء كان الأزهري يرتب الأفكار لمصلحة الوطن وليس لمصلحة حزب أو فئة كما خيل للبعض فسكت عن مؤامرات المستعمر التي أرادت خلق الاضطراب وزعزعة الجهود لنيل الاستقلال وفي الحقيقة وعندما شعرت دولتا الحكم الثنائي باقتراب الرحيل من السودان تسارعت الخطي لكسب السودان لفترة مابعد الاستقلال وقد ظهر هذا في محاولات الصاغ صلاح سالم واندماجه مع المجتمعات الجنوبية يؤلف بين قلوبها وفي المقابل كان الإنجليز ينشرون الفتن ويضعون العقبات فقد كان الحاكم العام

البريطاني قد كلف برعاية شئون الجنوب وزار السودان السير سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا (٢٤) وبعدها تمكنوا من نشر القضية وطعنوا في نوايا سودنة الوظائف ووصفوها بالعجلة وقالوا بأن السودانيين لن يتمكنوا من أداء المهام علي الوجه المطلوب واستمروا علي هذا المنوال حتي دبروا مكيدة تمرد سنة ١٩٥٥ (٢٥) وكانت أول بوادر التمرد في جنوب السودان وقد حدث نتيجة لسوء فهم ونشر برقية مزورة نسبت إلي الزعيم الأزهري يأمر فيها باضطهاد الجنوبيين وإساءة معاملتهم وتحت ضغط التأثير تمردت الكتيبة الجنوبية التي دعيت لحضور جلاء القوات الأجنبية عن السودان ظنا منها أن تلك خدعة وأن فخا نصب لهم في الخرطوم وهكذا تولد عدم الثقة في نفوس الجنوبيين واستمرت الحركات المناوئة لوحدة الوطن منذ ١٩٥٥ وحتى سنة ١٩٧٢ وقد بذل الأزهري أقصي مافي الاستطاعة لتأليف قلوب الناس فدرس قضية الجنوب في إطار مؤتمر المائدة المستديرة في ١٩٦٥ وفي لجنة الأثني عشر (٢٦) وكان الحكام يرفعون شعار السودان : الدين لله والوطن للجميع ولم يتركوا سانحة لتطيب نفوس الجنوبيين إلا استغلوها فاحتل الجنوبيون مواقع مرموقة بالدولة وكان منهم عضو بمجلس السيادة وأعضاء بمجلس الوزراء واستمروا إخوانا حتي اشتد تمرد جوزيف لاقو الذي جلس لمفاوضات مع الحكومة انتهت باتفاقية أديس ابابا لعام ١٩٧٢ وقد نعم الجنوب بعدها بفترة من السلام والتنمية .

كان الأزهري وطنيا مخلصا وغيورا علي وطنه بل كان يحب كل من حط الرحال بأرض السودان وحتي المستعمر نفسه وجد منه رحابة الصدر وسماحة الخلق وكرم العناية فهذا سير فوين بل يتحدث عن صداقته بالأزهري أثناء عمله معه كوكيل لوزارة الداخلية في الفترة ١٩٥٤ / ١٩٥٦ يقول :." فقد طلب الأزهري منه البقاء في منصبه حتي يغادر آخر إداري بريطاني البلاد فاستجاب فوين بل للطلب ومن إخلاص الأزهري أنه استعجل سودنة الخدمة العامة لاستكمال مستلزمات السيادة الوطنية وأصدر منشورا حدد فيه العلاقة بين الوزير والوكيل كما منع تضارب الاختصاصات والمهام .

لم يقتصر دور الأزهري علي تدعيم أواصر الإخاء والسلام والوحدة داخل السودان فحسب بل امتد إلي العالم كله فقد كان مؤسسا لمؤتمر عدم الانحياز وكان من المؤسسين لجامعة الدول العربية والوحدة الإفريقية وكان يسمي "بحكيم إفريقيا " وعن هذه التسمية يروي الكاتب الصحفي محمد سعيد محمد الحسن فيقول " اطلق عليه هذا الإسم رؤساء إفريقيا حيث كان ودائما يحتل موقعا في الصدارة متمسكا بالقيم والأصول العريقة كما أنه انتخب رئيسا لمؤتمر الخريجين الذي قاد مسيرة الحركة الوطنية وأختير رئيسا لوفد السودان لشرح قضية السودان في الامم المتحدة وانتخب أيضا رئيسا لحزب الأشقاء الذي نادي بالوحدة مع مصر ثم اختير رئيسا للحزب الوطني الاتحادي وكان أول رئيس لأول حكومة وطنية ثم صار رئيسا لمجلس السيادة في ١٩٦٥م .

ولما كان من أسوأ ما واجهته إفريقيا في الستينيات أعمال الإرهاب والشغب التي قام بها المرتزقة البيض الذين احترفوا حرب العصابات وكان من أبرز ضحاياهم الرئيس لوممبا والمستر داق همرشولد ، السكرتير العام للأمم المتحدة كان للأزهري دور بارز في إخماد حركة هؤلاء المرتزقة فقد تم انتخابه أثناء القمة الإفريقية التي عقدت في كنشاسا عام ١٩٦٧ رئيسا للجنة من تسعة أعضاء من بينهم جومو كنياتا وكاوندا وسنجور ، فبادر الأزهري بمعالجة الأمر بإرسال الرسائل الشخصية لعدد من رؤساء الدول الأوروبية أوضح فيها بجلاء خطورة الوضع الناجم عن وجود المرتزقة وكللت مساعيه بالنجاح وقد وفرت الطائرات لنقل المرتزقة البيض إلي أوربا ويعد هذا العمل قمة انجازات الأزهري علي الصعيد الإفريقي ولهذا أطلق عليه اسم حكيم إفريقيا ويروي الكاتب أمرا طريفا حدث إبان زيارة الأزهري للكنغو في ١٩٦٩ وعندما كان في الاحتفال الرسمي المقام علي شرفه جاءت مجموعة من العسكريين الأشداء وحملوه علي مقعده وطافوا به وسط الجماهير اعترافا بفضله وتخليصه لهم من خطر المرتزقة البيض (٢٧) .

وعلي المستوي القطري تميز الأزهري بانحيازه للقومية ولم يحصر همه في حزب أو طائفة وإنما كان داعية سلام ووحدة وقد الف كتابا اسماه (الطريق الي البرلمان) (٢٨) .

غـــانا :

ثم ندلف إلي غانا حيث نكروما الذي أسس بها جريدة (أخبار غانا المسائية) والتي لعبت دورا رئيسا في حث الشباب علي مناهضة المستعمر ثم تزعم مؤتمر حزب ساحل الذهب وكان أول تنظيم سياسي ينشأ هناك بعد الحرب العالمية الثانية ويتكون من النخبة المتعلمة من الصحفيين وكبار التجار وقد اتسعت قاعدته في ١٩٤٧ بانضمام نكروما وكان من المتحمسين ومن ذوي الميول الاشتراكية واستطاع لما يتمتع به من صفات كالثورة علي التنظيم والحس الجماهيري أن يزيد من شعبية حزب ساحل الذهب ولما أجريت أول انتخابات عام ١٩٤٩ أحرز حزب شعب المؤتمر نسبة عالية من الأصوات مما اضطر الحاكم العام لإطلاق سراح نكروما من سجنه حيث توجه إلي رئاسة أول حكومة في فترة الحكم الذاتي تحت رعاية الحاكم العام ثم ترأس الحكومة التي كونت في ١٩٥٣ وتمكن ايضا من قيادة شعبه لتحقيق الاستقلال في ١٩٥٧ (٢٩) .

وكالأزهري كان نكروما وطنيا وإفريقيا وكان يحلم بالوحدة الإفريقية وقد نافس في أن تكون أكرا مقرا للمنظمة إلا أنه لم يكن في ثراء وعددية سكان نيجيريا كما لم تكن غانا أيضا أكثر من اثيوبيا عراقة وأصالة وبها الأمبراطور هيلاسلاسي الذي تربع علي عرش بلاده وعرف عن إفريقيا الشيء الكثير وقد زار السودان طالبا تأييد الأزهري له في أن تكون أكرا مقرا للمنظمة إلا أن المنظمة قد أنشئت في اديس ابابا ومن مؤلفاته القيمة – نحو تحرير المستعمرات – وقد وصف فيه المستعمر بالآفة التي أصابت الشعوب المغلوبة علي

أمـــرهـا فزادتها هــوانـا علــي هوان ثم كتـب عـن التحـــرر الوطنـــي ونعـــمة الاستقلال ومن المؤلفات ايضا :

(٣٠) " Africa must Unite, New York International Publishers , 1970
" Neo - Colonialism, the Highest stage of Imperialism"

نيجـــيريا :

وفي نيجيريا قامت أحزاب عديدة في العقد الخامس من القرن العشرين وكان أبرزها حزب المجلس القومي لنيجيريا والكميرون والذي أسسه إزكوي وهو من الأيبو وقد ذكرنا أنه نال تعليما في أمريكا وأنه عمل بالصحافة وكان من رواد حركة شباب نيجيريا وكان يأمل أن يصير حزبه حزبا قوميا ، ويليه من الأحزاب حزب جماعة العمل التي أنشأها اوياقاهي من اليوروبا وهو محام ويمثل الحزب مصالح النخبة الإفريقية المثقفة وكان هناك حزب مؤتمر شعب الشمال وشمل شعب الهوسا والفولاني وكانت زعامته الروحية تتمثل في الأمير أحمد بيلو ونائبه أبوبكر تفاوه بيلو وقد رأس الشيخ أحمدو بيلو الحكومة الإقليمية للأقاليم الثلاثة في عام ١٩٥٣ وقد طالب جماعة العمل في البرلمان بالحكم الذاتي لنيجيريا بينما عارضهم في ذلك أهل الشمال وحدثت أزمة بين الجهتين وانسحبت جماعة العمل من البرلمان ثم وقعت معركة بين الشماليين والجنوبيين في ١٩٥٣ عندما زار زعيم العمال الشمال ونتيجة لهذه المعركة خفضت صلاحيات الحكومة المركزية وحصرت في مجال الأمن والدفاع والخارجية ونقلت السلطات المتبقية إلي الحكومات الإقليمية .

وفي عام ١٩٥٤ كونت حكومة ائتلافية بعد الانتخابات بين الشمال والجنوب بين الايبو والهوسا وصار حزب العمل في المعارضة بزعامة اوياقاهي .

وفي عام ١٩٥٧ طالب البرلمان باستقلال نيجيريا فمنحتها بريطانيا أياه في عام ١٩٦٠ وصار أزكوي رئيسا للجمهورية بينما صار بيلو رئيسا للوزراء (٣١) .

وفي خلاصة الأمر نقول بأن جميع الأقطار التي تتبعنا مسارها نحو الاستقلال قد تشابهت ظروف نضالها ومعاوله وأدواته وقد تأثر الزعماء ومجتمعاتهم بالمؤثرات الدولية كالحربين العالميتين الأولي والثانية ومهام المستعمر وخططه لكل مرحلة من المراحل ثم دخول البلاد في مجال تطور الحياة النيابية والممارسة الحزبية وتوجيه المستعمر لبرامج وكوادر هذه الأحزاب في أغلب الأوقات وكان المستعمر يفاوض زعماء الطرفين بمنهجية توضح تمسكه بالبقاء لأطول فترة ممكنة وكذب من أدعي أن المستعمر قد عمل علي تطوير المستعمرات والصواب أنه عمل علي تخلفها وامتصاص خبراتها وطاقات بنيها فهاهو قوين بل يحكي بصدق ماكان يجول في خاطره " إن الأمانة أن أعترف بان نهضة السودان التي كنت أفهمها وأنشدها في ذلك الوقت لم ترق إلي مستوي التقدم به إلي الاستقلال أو حتي إلي الحكم الذاتي فما من أحد منا كان يتوقع أن ينال السودان استقلاله قبل ان يبلغ

سن التقاعد في الخمسين من أعمارنا .. كنا بحكم العمل نحفظ الأمن والنظام و ندفع الاقتصاد وكنا كمن يحفر قبره بيده ... وقد اشـتدت رغبة الناس في الخلاص منا " لكي يكونوا سادة في بلادهم ".

وختاما نقول إن كل البلدان الإفريقية مجال الدراسة قد نالت استقلالها في أوقات متقاربة فكان استقلال أولها وهو السودان في ١٩٥٦ وتلته غانا في ١٩٥٧ ثم نيجيريا في ١٩٦٠ واخرها كينيا في ١٩٦٣م .

الهوامش :

(١) حسن مكي : " بين دان فودي والمهدي والأفغاني " مجلة " أفكار جديدة مجلد ١ عدد ١١١ تصدرها : هيئة الأعمال الفكرية – الخرطوم مارس / مايو ٩٧ص ٢٥٢
أنظر ايضا : الطيب عبدالرحيم الفلاتي "
" الفوديون ومقاومة الاستكبار في السودان وغرب إفريقيا : ورقة مقدمة للندوة العالمية للاحتفاء بالشيخ المجاهد عثمان دان فودي ، نظمتها جامعة إفريقيا العالمية بالتعاون مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم ايسيسكو – قاعة الصداقة ، نوفمبر ١٩٩٢

(٢) التيجاني عبدالقادر : الزنوجة والإسلام
" الجذور الإسلامية لحركات التحرر الأفرواسيوية مع نظرة خاصة لمشروع الانقاذ" الدراسات الاستراتيجية ؛ ع ٢ يناير ١٩٩٥ مركز الدراسات الإستراتيجية – الخرطوم ص ٨٩.

(٣) Julia Friedmann, Jomo Kenyatta, wayland Publishers, London, 1963, P. 9

(٤) عون الشريف قاسم : موسوعة القبائل والأنساب في السودان وأشهر أسماء الإعلام والأماكن ج١ : أ – ح : ط ١ ١٩٩٦ – شركة افروقراف ص ١٣٦

(٥) المصدر نفسه : ص ١٣٦

(٦) القاموس السياسي : أحمد عطية : ط ٤ ١٩٨٠ دار النهضة العربية ص ١٦٢٣

(٧) فيج . جي ، دي – تاريخ غرب إفريقيا ترجمة دكتور الســـيد يوسف نصر ط ١ القاهرة ١٩٨٢ ص ٣٩٢

(٨) Julia , Op.cit., P. 33

(٩) Ibid. , P. 41

(١٠) Ibid., p. 69

(١١) عون الشريف قاسم ، المصدر السابق ص ٣٦

(١٢) سيرفوين بل : إدارة السودان في الحكم الثنائي ، إعداد بشير محمد سعيد ط ١ جامعة الخرطوم ١٩٨٨ ، ص ٨٤
انظر أيضا : أحمد خير : كفاح جيل : تاريخ حركة الخريجين وتطورها في السودان ط ١ الخرطوم ١٩٧٠ صفحات ١٢٤ – ٢٤٣

(١٣) محمد أحمد المحجوب : الديمقراطية في الميزان : تأملات في السياسات العربية والإفريقية : جامعة الخرطوم للنشر ط ٢ ١٩٨٩ ص ٣٩
وأنظر أيضا : مذكرات خضر حمد : الحركة الوطنية السودانية : الاستقلال ومابعده ،

الشارقة ط ١ ١٩٨٠ صفحات ٣٤٦ - ٣٦٣

(١٤) أمين التوم : ذكريات ومواقف في طريق الحركة الوطنية السودانية ١٩١٤ - ١٩٦٩ ط ١ جامعة الخرطوم ١٩٧٨ ص ٦٤

(١٥) الطيب ابشر الطيب : مكتب السكرتير الاداري : ١٨٩٩ / ١٩٥٦ رسالة دكتوراة - جامعة الخرطوم ١٩٩٦ ص ١٧٨

(١٦) المصدر نفسه ، ص ١٨٠

(١٧) المصدر نفسه ، ص ١٧١

(١٨) أمين التوم ، المصدر السابق ، ص ٤٩

(١٩) محمد أحمد المحجوب ، المصدر السابق ، ص ٤٢

أنظر ايضا Muddathir Abd Al Rahim: Imperialism and Nationalism in the Sudan : A study in Constitutional and Political Development 1899- 1950 , Oxford 1969 , pp 199 - 212

(٢٠) محمد أحمد محجوب ، المصدر السابق ، ص ٤٣

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٤٣

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٥١

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ٥٢

(٢٤) بشير محمد سعيد ، خبايا وأسرار في السياسة السودانية الخرطوم ١٩٩٣ ص ١٩

(٢٥) المصدر نفسه ص ٢٩

(٢٦) NRO / South /1/21/247 : 12 Man Committee

(٢٧) محمد سعيد محمد الحسن : مقالة : صفحات من كتاب تحت الطبع في جريدة أخبار اليوم ع ١٠٦٠ (بتاريخ ١١ اكتوبر ١٩٩٧)

(٢٨) اسماعيل الأزهري " الطريق إلي البرلمان "

(٢٩) القاموس السياسي المصدر السابق ، ص ١٦٢٣

(٣٠) محمد سعيد محمد الحسن : اخبار اليوم الاسبوعي ع ١٠٤٦ سبتمبر ١٩٩٧ ص ١٢

(٣١) Ajide Atuke , R, Ghana & Nigeria 1957 - 70: A Study in Inter - African Discord , Rex collings , London 1979 , P. 13